التوبة في الكتاب والسنة

المحاضرة السادسة والثلاثون
لفضيلة الشيخ : سليمان المدني

في الجزء الثالث من محاضرة التوبة في الكتاب والسنة والذى نشر في العدد الماضى تناول فضيلة الشيخ سليمان المدني الذنوب التى تحصل للانسان وانواعها واوضح فضيلته أن الملائكة لاتعصي . لان الله سبحانه وتعالى خلقها عقولا مجردة وخلق الله الشيطان من مركب النار فهي تعصي،وخلق الانسان فجعل فيه كل هذه التركيبات اضافة الى انه نفخ فيه من روحه فتولدت فيه صفات ربوبية وصفات شيطانية . وأنهى فضيلة المحاضر الجزء الثانى من المحاضرة بقولة .

فإذن لا يمكن للانسان بعقله ان يصيب أسرار الشرع في الحقيقة وأسبابه وعلل تشريعاته وتنظيماته أمر بعيد على أى حال فكل ما كان له غرض أو كلما كان هذا الذنب له تعلق بالحجب عن اليوم الآخر يكون كبير . نعم هناك أمور لايكاد البشر بسبب ما فطروا عليه من الحيوانية ينفكون عنها كان يتكلم فيكذب كذبة صغيرة أو يعد انسان بالمجيء ثم لا يأتي أو غير ذلك أو يغتاظ على ابنه فيضربه من دون ان يستوجب هذا الأبن ضرباً أو أمثال ذلك أو سوء خلق بينه وبين أخيه في أمر من من الأمور هذه .

وفي هذا العدد ننشر الجزء الرابع والأخير من المحاضرة ..

هذه امور لا يكاد الناس يتمكنون من الانفكاك عنها . لذلك سميت بالصغائر ولكن هذه الصغائر لا ينبغي الاستهانة بها يقول الصادق صلوات الله وسلامه عليه (اياكم والمحقرات من الذنوب فانها لا تغفر فقيل : يا بن رسول الله وكيف لا تغفر ؟ قال : ان يعملها الرجل فيقول : ان لم تكن علي الا هذه فطوبى لي اذا استصغرها واستهان بها انقلبت كبيرة) ولعله من هذه الرواية اخذ قوله من قال ان كل ذنب مع الاصرار كبير او انه لا يوجد فرق بين الصغيرة والكبيرة على اى حال ان هذه امور لا يتمكن الناس بسبب ما فطروا عليه بسبب عدم الانفكاك عنها جعل الله لها كفارات خاصة فالصلاة كفارة لما قبلها يعني مثلا صلاة الصبح كفارة لما عمل بين صلاة العشاء الى صلاة الصبح ، صلاة الظهر كفارة لما حصل من الصغائر بين فرض الصبح الى فرض الظهر وهكذا . والجمعة الى الجمعة كفارة يعني صلاة الجمعة كفارة لما وقع من الذنوب بينها وبين الجمعة السابقة عليها ، ورمضان الى رمضان كفارة فهذه الذنوب الصغائر جعل الله سبحانه وتعالى لها مكفرات هي هذه العبادات اليومية او الاسبوعية او السنوية ولكن بشرط التوبة عنها والعزم على عدم العودة اليها وان كان لا يتمكن بحسب فطرته بحسب طبيعته سيعود لكن عليه دائما ان ينوي في نفسه وان يأسف على ما حصل منه وان يعزم على ان لا يعود هذا بالنسبة الى الصغائر . واما بالنسبة الى الكبائر فقلنا ان الكبيرة انما يحصل التوبة منها بالندم عليها الندم الشديد وحتى يزيل اثرها من قلبه عليه باكثار الطاعات عليه باكثار الحسنات لأن الله (سبحانه وتعالى) يقول «ان الحسنات يذهبن السيئات» . ويقول (ص) : (اتبعْ الحسنة السيئة تمحوها) وذلك في الحقيقة هذا الامر الالهي له حكمته الكبرى وذلك لأن الانسان يحصل على قلبه رين مما يباشر من الذنوب

وذلك كالمرآة التي تكون في مكان يتصاعد فيه البخار لا تظهر فيها الصورة فمجرد ايقاف مصدر البخار لا يجعل الصورة منطبعة عليها بل لابد من تنظيفها من البخار وتنشيفها وتجفيفها حتى تعود المرآة قابلة لعكس الصور كذلك قلب الانسان بسبب مزاولته للذنوب تحصل عليه رين يحصل عليه ظلمه مجرد التوقف عن الذنوب يوقف زيادة تلك الظلمة فلابد ان يشتغل الانسان ايضا في صقل هذا القلب واعادته لتلقى الانوار الالهية والقربات الرحمانية وذلك بالاكثار من الطاعات وعمل الحسنات فطبعا هذا ايضا كالثوب الذي يصيبه الاوساخ مجرد اخراجه من مواضع الوسخ لا ينظفه لابد من غسله بالماء والصابون مراراً وتكرارا حتى يعود اليه نقائه وبياضه كذلك القلب وهذا طبعا الطريق الوحيد في التحصيل او الرجوع الى الله سبحانه وتعالى والعودة اليه مع اعادة الطهارة الاصلية للانسان والنظافة هو ان يواظب على الطاعات ويتجنب بقدر امكانه في ان يقع او يتورط في معاصى جديدة ولكن على اي حال ومهما كانت الذنوب بين الانسان وربه ولو انها الى عنان السماء لا ينبغي له ان ييأس او يقنط من رحمة الله (سبحانه وتعالى) ويقول (سبحانه وتعالى) «قل يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله» ويقول (ص) (لو كانت ذنوبكم من الارض الى عنان السماء فتبتم غفر الله لكم) فإذن لاشك ان التوبة هى باب الرحمة التي منحه الله لخلقه ارغاما لعدوه وهذه التوبة اذا حصلت طبعا هي واجبة على كل الناس سواء كان نبي او امام او عالم او اي انسان عادي يجب عليهم التوبة في كل حين من الاحيان وفي كل حال من الاحوال ولا يمكننا تفصيل هذا الموجز ولكن نقول ان وجوب التوبة عام من جميع الوجوه وفي جميع الاحيان وعلي جميع الناس وان الانسان واجبه الاول هو التوبة وهذه التوبة متى ما وجدت لاشك ان تكون مقبولة لا يعقل ان توجد التوبة ولا تقبل من عند الله (سبحانه وتعالى) بعضهم يشكك ويقول : كون التوبة صحيحة شيء وكونها مقبولة شيء آخر يقيس التوبة على الصلاة او الصيام او غير ذلك قد يكون صحيحا مسقط عن الاعادة والقضاء ولكن لا يكون مقبولا . التوبة تختلف عن هذه العبادات البدنية لا يعقل ان توجد ولا تكون مقبولة من الله (سبحانه وتعالى) ولنا دليل واحد بالاضافة الى قضية ان الفطرة فطرة الانسان تقتضى ذلك والا يئس من رحمة الله الذي منه والذي منه بناء دليل واحد الذي هو ، موجود في نصوص أهل الشرع وهي انه (سبحانه وتعالى) هو الذي طلب الى عباده ان يتوبوا «يا أيها الذين امنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً» (توبو الى الله جميعاً ايها المؤمنون) فطبعا لما ناتي الى القابل والطالب يعني قد يقبل الانسان شيئا ولكنه لم يطلبه ولكن لا يعقل ان يطلب الانسان شيئاً لا يقبله فما دام الله (سبحانه وتعالى) هو الذي طلب التوبة من عباده فلابد ان يكون قابلا لتلك التوبة عند حصولها ولا يعقل ان توجد التوبة ولا تكون مقبولة منه (سبحانه وتعالى) والا لتخلف الغرض من فتح بابها لبني الانسان عموما .

نعم شيء آخر لا تقبل فيه التوبة ظاهرا ولكن تقبل باطنا وهو الارتداد عن الفطرة والعياذ بالله يعني لو ارتد الانسان عن فطرة الايمان بالله بعد ان ولد بين ابوين مسلمين او كفر بالنبي او بالقرآن او كذب بالصلاة او غير ذلك بعد ان ولد بين ابوين مسلمين هذا يقال له مرتد فطرى المرتد الفطري يقول العلماء لا تقبل توبته لا يعنون على الاطلاق يعني في الظاهر في الحياة الدنيا المرتد عن فطرة المسلمين لا يقبلون توبته لان حكمه في الشريعة الاسلامية هي ان يقتل ولكن باطنا بينه وبين الله تقبل توبته ففرق بين الحكم الوضعي الظاهري في الحياة الدنيا وبين الحكم التكليفي في الحياة الاخرى الحكم الوضعي بالنسبة الى هذا الانسان ان الحاكم الشرعي يحكم عليه بالقتل ويحكم بأن زوجته قد بانت منه ويقسم تركته حتى لو لم يتمكن من قتله ولكن لا يقولون انه اذا تاب لا يقبل الله توبته لا . اذا تاب وادعى التوبة وكان الحاكم الشرعي قد قدر عليه فان الحاكم الشرعي يؤخر تنفيذ الحد ويعطيه مهلة لقضاء صلاته وصيامه وما فاته من العبادات الحكم بأن يؤخر حدّه ويعطي مهلة للقضاء دليل على ان توبته في الباطن مقبولة وان كان حده في الدنيا القتل وليس هو الذنب الوحيد في الدنيا الذي حده القتل الزاني المحصن حده في الدنيا القتل اللائط لمحصن حده في الدين القتل المفعول به حده في الدنيا القتل

، شارب الخمر اذا جلد ثلاث مرات ثم عاد وشرب في الرابعة حكمه القتل كثير من الذنوب حدها بالنسبة الى الدنيا يصل الى القتل .

فإذن كون المرتد الفطري حده في الدنيا القتل لا يعني ان توبته عند الله غير مقبولة ولكن يعني ان المسلمين ينبغي ان لا يعتبرونه تائبا ولا يقدمونه في امورهم يعني بحيث بعد ذلك حضرته مثلا يمضي له سنين السنين مع الشيوعيين وبناصر الشيوعيين وينتمي الى الشيوعية واذا به بعد عشية اوضحاها من كبار الملتزمين الذين يدعون الى الاسلام ويعلمون الاسلام هذا النوع لم يرضه الاسلام للمسلمين ولذلك وردت النصوص عن النبي (ص) والائمة (عليهم السلام) بأن المرتد الفطري لا تقبل توبته ظاهرا وتقبل توبته باطنا فإذن التوبة لا يعقل ان توجد ولا تكون مقبولة ولعلك تقول ان القائد قد يشك في قبول التوبة نقول ان الشك في قبول التوبة والخوف من العقاب هو علامة التوبة ومجرد كونه يشك في ان الله قبل توبته او لم يقبلها لا يدل على ان الله لم يقبل توبته لان الله (سبحانه وتعالى) ما اناط قبول توبته بجزم العبد عليه بقبوله يقول الصادق (عليه السلام) «من اذنب ذنباً ثم علم بان الله يراه وانه من حقه ان يعفوا عنه اذا شاء وان يعاقبه اذا شاء فقد غفر الله له وان لم يستغفره» فالخوف من العقاب انما هو تسليم بحق المولى الأخذ بحقه وهذا هو عين التوبة وعين الايمان فكيف تكون حقيقة الإيمان منافية للتوبة .

وبعد أن انتهى فضيلة الشيخ سليمان المدني من المحاضرة فتح المجال امام الحضور لالقاء الاسئلة ، نختار فيما يلي بعضا منها : اذا كانت التوبة هي عن الذنوب اذا فما بال استغفار المعصوم المكثف (ع) .

الذنوب بالنسبة للبشر ليست على مستوى واحد والاستغفار أيضا ليس على مستوى واحد فرب عمل لو اتاه الانسان لعد ذلك الانسان طائعا . ولعد ذلك الانسان محسنا ولكن هذا الفعل بالذات لو فعله انسان آخر لعد ذلك الانسان مسيئا وذلك مثل ما ينبغي تركه بطريق اولى طبعا عندما يرتكبه الانسان العادي ويترك ما يكون الاولى فعله لا يكون مذنبا وفي القرآن الكريم آيات كثيرة احتج بها من ذهب الى عدم عصمة الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين مثبتا لهم الذنوب

وهي في الحقيقة ليست الا من قبيل ترك ما هو اولى وليست مخالفة للشرعية فلذلك الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم هم اشد الناس استغفارا فانهم (صلوات الله عليهم) عندما ينشغلون بأي شيء من المباح عن امر الملة او الأمة يعدون ذلك ذنباً فيستغفرون عنه . مع انه مثلا انشغل عن هذا الامر بأمر مباح باكل او شرب او حديث او غير ذلك مجرد انشغاله لحظة ما عن امر الملة التي هو في صدد نشرها او الامة التي كلف بهدايتها يعده هو على نفسه ذنبا فيستغفر عنه ولذلك يقول (ص) (اني لاستغفر في اليوم سبعين مرة) او في رواية اخرى مئة مرة فالله (سبحانه وتعالى) لا يؤاخذ الناس كلهم على قدم المساواة في المؤاخذة بل هم درجات ومن ذلك ورد في الروايات ان عقاب العالم الفاجر اشد من عقاب الجاهل ويضاعف له العذاب باشد ما لا يضاعف له شخص آخر لو ارتكب ذلك الفعل فاذن التوبة وقد طويتُا نحن الكلام قلنا ان التوبة واجب على الجميع في جميع الاحوال وقلنا ان الوقت لا يتسع للتفصيل مثلا الانشغال بحديث عن ذكر الله (سبحانه وتعالى) نقص سواء كان لنا او للمعصومين (ص) بمجرد التوقف لحظة عن ذكر الله وعن التفكير في الله يعني مجرد توقف الفكر لحظة واحدة في شيء مباح عن التفكير في الله (سبحانه وتعالى) لحظة واحدة تداركه بالاستغفار والتوبة وهذا معنى الاستغفار .

الانبياء والاوصياء لا بمعني ان التوبة ليست عن الذنوب طبعا الذنوب متفاوته والمقصود بالتوبة قلنا الرجوع الى الله والمقصود بها تحصيل القدر الممكن من الكمال بالنسبة للعبد ولاشك ان الدرجة التي يطلبها المعصوم من الكمال او الذي يصبوا اليها المعصوم من الكمال غير الدرجة الذي يصبوا اليها الانسان العادي من الكمال فمجرد خلاف الاولى بالنسبة الى المعصوم نقص .

يخاف ان يحجبه عن بلوغ تلك المرتبة من الكمال بخلاف غيره من سائر الناس فانه ربما ترك حتى المستحب او ارتكب حتى المكروهات دون ان يخطر في ذهنه ان هذا نقص شديد قد يؤخره في كثير من المراتب الاخروية فلذلك ورد في الحديث (حسنات الأبرار سيئات المتقين) .

● قال الله سبحانه وتعالى (ما منكم الا واردها) ما تفسير هذه الاية .

ـ المقصود بها النار ما من احد من بنى آدم إلا ويمر بالنار حتى يفرح اهل الجنة بانهم ليسوا من اهلها ولانك لو لم تعرف نقيظ الشيء لا تعرف الشيء من لا يعرف الابيض لا يظهر له سواء الاسود انما يحصل بضده فاذا مرَّ المؤمن بالنار طبعا لا تحرقه نفس ورودها لا يعني العذاب فيها «وما منكم الا واردها كان ذلك على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين امنوا ونذر المجرمين فيها حثيا» فإذن قضية الورود لا تعني العذاب وانما تعني المرور سواء المؤمن والكافر والمعصوم وغير المعصوم كلهم يمرون بالنار وعندئذ يجتاز المؤمنون الى جنتهم بعد ان عاينوا ما يجرى في النار يحمدون الله ويشكرون على انه لم يجعلهم من اهلها ومن سكنتها ومن يعمر فيها ويعرفون مقدار الكرامة التي نالوها بطاعتهم ورجوعهم الى الله (سبحانه وتعالى) ويعرفون مقدار الخسارة والهلاك الذي حلّ باولئك الذين خالفوهم عن هذا الطريق في الحياة الدنيا .